Al-Fikr Al-Siasi Al-Islami
EISSN: 2015-2783
Islamic Sciences and culture Academy
Scientific-Specialized Bi-Annual journal
Vol. 1 ● No. 2 ● Issue 2 ● Autumn & Winter 2021

An Examination of the Relationship between Freedom and Political Slavery from the Perspective of the Holy Qur'an

Sayyid Kazem Sayyid Bagheri[1]

Received: 11/09/2021 **Accepted: 21/11/2021**

Abstract

Based on the Qur'anic view, the situation of political freedom comes from within, when man is freed from his internal egoism and Taghut (rebel against God) and submits to monotheism and its implications; it will be a prelude to liberate himself from the bondage of others. However, the divine prophets are appointed by the constant message of confrontation with the outer Taghut, the combination of the two elements of moving away from the inner and outer Taghut is a way to liberation. Given that man, on the one hand, is dependent on worldly belongings and, on the other hand, is influenced by the effective manifestations of power and wealth, in any case, it is possible that in political interactions, he becomes fascinated and enslaved by others and subconsciously gives his freedom to others, so the divine prophets come to remind him of the forgetfulness of the blessing of freedom. Considering the importance of this issue, the present paper seeks to find out fundamentally what is the relationship between freedom and political servitude from the point of view of the divine words (The

1. Associate Professor, Research Institute of Islamic Culture and Thought. sbaqeri86@yahoo.com.

* Sayyid Bagheri, S. K. (2021). An Examination of the Relationship between Freedom and Political Slavery from the Perspective of the Holy Qur'an. Journal *Scientific-Specialized Bi-Annual*, 1(2), pp. 11-42. DOI: 10.22081/ipt.2022.63336.1000

Qur'an). The hypothesis emphasizes that according to the basis of monotheism and the place of man as Khalifato Allah and his free and equal creation, according to the logic and verses of the Holy Qur'an, serving God is considered the first step towards political freedom and liberation, so no one has the right to undermine his freedom, just as he can not follow and enslave others in the political arena. Therefore, by serving God, man has a spirit of freedom and opens his path to political freedom, a path in which obedience to Taghut is rejected and denied. This issue has been examined by the method of ijtihad interpretation. The relationship between freedom and slavery in the political arena has been less considered by scholars in the field of Islamic political thought, and this can be considered as an innovation of this paper.

Keywords
Political slavery, political freedom, political, the Holy Qur'an.

الفكر السياسي الإسلامي
EISSN: ٢٠١٥-٢٧٨٣
مجلة علمية نصف سنوية
المجلد ١ • العدد ٢ • الرقم المسلسل للعدد ٢ • خريف و شتاء ٢٠٢١

المقارنة بين الحرية والعبودية السياسية من منظور القرآن الكريم

سيد كاظم سيد باقري[١]

تاريخ الاستلام: ٢٠٢١/٠٩/١١ تاريخ القبول: ٢٠٢١/١١/٢١

الملخص

إنّ المنعطف الخطير في مسار الحرية السياسية وفقا للرؤية القرآنية السامية، يتبلور في التغيير الجذري لنمط التفكير والتغيير من الداخل وبِما أنَّ الإنسان يَرضَخ تارة للتعلقات الدّنيوية والتمايلات النفسانية، ويتأثر بالمظاهر المؤثرة على نشوء القوة والثروة والتّمكين تارة أخرى، فإنّه سيصبح مفتونا بها وبالتالي سيكون عبدا للآخرين في تعاملاته السياسية من حيث لا يدري ويُطفئُ الجَذوة المُتقدّة لحريته الشخصيّة لينسحب لصالح الآخرين؛ وما كانت بعثة الأنبياء إلا لتذكير الإنسان بنعمة الحرية التي تُعتبر أهم نعمة يعيشها الفرد في حياته. ومن هذا المُنطلق وإدراكا بأهميّة الموضوع، تهدف هذه الدراسة مناقشة وتفسير هذا الأمر الأساسي الذي ينّصُ على مدى العلاقة القائمة بين الحرية والعبودية السياسية. وجاءت فرضيّة البحث متناسقة مع مباني التوحيد وأركانه الرّصينة، تطبيقا لمفهوم خلافة الله في الأرض، والاستخلاف هو عمارةُ الأرض بحسب نظام الله، فالإنسان بعد التتويج بهذا المنصب المثير للجدل والنقاش يضع نفسه على المحك، وما الضَّيرُ في ذلك لو أدركنا الغاية مِن خلق البشر؟ فلو تَعمّقنا في الموضوع لوجدنا معطيات ودلالات كثيرة تُبيّن فلسفة الخلق وسِرّ الوجود الذي يكشف النقاب عن الأهداف المرسومة التي تتمحور على مبادئ الحرية ومباني المساواة بين كافة بَني البشر اعتمادا على المنطق وآيات القرآن الكريم. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، تَمّ تَسليط الضوء على هذا الموضوع المرتكز على المعرفة العلمية والتفسير الاجتهادي الجامع ومخرجاته التطبيقية.

الكلمات المفتاحية

العبودية السياسية، الحرية السياسية، الحرية، القرآن الكريم.

١. استاذ مشارك في قسم السياسة بمعهد الثقافة والفكر الاسلامي، قم. sbaqeri86@yahoo.com

* باقري، سيد كاظم. (٢٠٢١). المقارنة بين الحرية والعبودية السياسية من منظور القرآن الكريم. الفكر السياسي الاسلامي، ١ (٢)، صص ١١-٤٢.
DOI: 10.22081/ipt.2022.63336.1000

مقدمة

إنّ النّفس الإنسانية والدوافع الفطرية التي في ضوئها يتقرر مصير الإنسان، جُبِلت على الحرية والسّعي الحثيث في النّيل إليها، فهي الغاية التي لا تعرف حدود الزمان والمكان وتخترق كل المسافات. ولا بد من بيان حقيقة مهمة سلّط التاريخ الضوء عليها بأنّ «تأريخ البشرية حافل بالسعي الحثيث للوصول إلى الحرية» (فروم، ١٣٥٦ش، ص ٢).

وكان لوجوج الإنسان إلى المجتمع بالتّزامن مع تواجد القوى المهيمنة وأصحاب السلطة، أثر بالغ في تقييد حريّته الشخصية أو وضع القيود والأغلال التي تُكبّل الإنسان وتمنعه من ممارسة حياته كما يريد، لكن إذا أمعنّا النظر في هذا الموضوع أو وضعنا تصرفات الإنسان تحت المجهر، لرأيناه يخوض تجارب المجتمع بكونه مدنيٌّ بالطبع من منطلق اللاوعي ويتأقلم مع القيود المفروضة التي يزعم بأنها تجري مجراها الطبيعي، وكيف لا فإنّ الحريّة المُطلقة لا تلوح في الأفق، أو قد لا تتحقق في ضَخّ الدماء الإنسانية الجديدة أو استثمار مجموعة متنوعة مِن الطاقات البشرية الكامنة في المجتمع، فقيد الإطلاق قد يناقضها أحيانا، لكن بداية نقطة الانطلاق تتجلى في اتخاذ الموقف المتمثل بالتحدي ونفاد الصبر في التعامل مع الأنظمة الحاكمة، وتكون بمثابة الشرارة التي تُلهب في الأرض قَوادح النار بعدما يسحق الحكام المستبدين تحت وطأة أقدامهم الحرية ومبدئيات حقوق المواطن ظلما وعدوانا.

وَ قَد سَجّل لنا التاريخ هذا الصراع البشري المُحتدم المتواصل مع السلطة الاستبدادية التي تَعاملت مع الأحداث وفقا لأهوائها وسلائقها الشخصية وقَيّدت حرية الإنسان وضَربت بِكل الحقوق الإنسانية عرض الحائط.

لاشك أنّ الحقوق السياسية والإجتماعية لدى الإنسان سَتُسحق وتُداس تحت وطأة أقدام الأنظمة الدكتاتورية، تلك السلطة التي تنظر إلى مواطنيها نظرة دونية، وكأنها تُفرغ شحنة سلبية عنيفة ظلّت دفينة لتوظّف نظرتها الاستعلائية،

معتبرة رعاياها عبيدا مهمشين لا إرادة لهم على الإطلاق، فَتُجلم أفواههم وتخرس السنتهم وتخنق صيحات مكبوتة وصرخات صاخبة تُدوّي في آذان الظالمين. وفي هذا المنعرج التاريخي الخطير تأتي الأهمية البالغة للوقوف عند زوايا العبودية السياسية التي ينبغي أن تنزاح عن كاهل الإنسان إلى غير رجعة، وعلى صعيد أكبر يبدأ العد التنازلي لمحو العبودية بشتّى أشكالها وأنماطها من قاموس البشرية حتى تتدحرج نحو الانهيار الكامل وتنزلق إلى شفير الهاوية بعد ما تضيء الحرية الآفاق بنورها الساطع وتُبدّد الظلمة الحالكة. إنّ الحديث عن العبودية أو انقراضها حَظِي بأهميةٍ كبيرةٍ عِند بعض المَعنيين الذين صنّفوها ضمن أطر حدود الحرية السياسية وضوابطها. وقد يعتقد البعض بأنّ معنى الحرية يتجلى في التّحرر مِن القيود ومعاناة السّجن، والسّعي الحثيث في اجتياز الحواجز والعوائق، والحَؤول دون التدخل السافر في شؤون الفرد واستغلال مفهوم العبودية على يد الآخرين (برلين، ١٣٧٩، ص ٧١).

وتعتبر العبودية السياسية كما عهدناها في العالم القديم نقطة إنطلاق لِسَحق أبسط حقوق المواطنة، وعلى النقيض من ذلك تتخذ النواة الأساسية للحرية السياسية شكلا واضحا في النّمو والازدهار، جنبا إلى جنب حقوق المواطنة، فالصّلة بين الحرية والحقوق الأساسية صلة وثيقة لا تتلاشى وتتبدد أبدا. وبعد إرساء مبادئ الحرية السياسية في المجتمع المدني، نلحظ نمطا متميزا من المواطنين الذين أصبحت سِمَتهم البارزة، القدرة في اتخاذ القرار، والتمتع بحق الرأي والاختيار في الهوية السياسية وحق الترشح في الانتخابات، إضافة إلى حق تبيين الحقايق السياسية وطَرح الرّؤى والأفكار الإبداعية وتطويرها، إنهم يَحظَون ويتمّتعون بحق الإشراف والمتابعة والتقييم لمسار ممارسة القوة في إدارة البلاد، فضلا عن بسط الهيمنة والنفوذ السياسي وعقد الاجتماعات والجلسات السياسية، وفي السياق ذاته يتعذّر على المعنيين تقليص اختياراتهم أو تضييق الخناق عليهم.

و بموازاة ما مرّ ذكره آنفا، فإنّ أهم خطوة تقوم بها الأنظمة الشمولية تجريد المواطنين من حق اختيار المصير وحرية الرأي والتعبير وسلبهم حق الإشراف على نُظُم السلطة، باعتبارهم عبيدا أذلّاء فالناس ليسوا إلّا بمثابة قطيع خائر القوى، مسلوب الإرادة، يترنّح على هامش الوجود، وما لهؤلاء سوى أن يقبعوا في الصمت المُطبق ولا ينبسوا ببنت الشفة، فهم منبطحون ومنصاعون لا إرادة لهم على الإطلاق.

تنوي هذه الدراسة البحث عن العلاقة بين الحرية والعبودية السياسية، حيث انتهجت فرضية البحث منهج الاعتماد على ارتقاء الفكر الإنساني الذي يسمو نحو مشارف الحكمة المتعالية فلا يلبث أن يتحرر ليتَّسع ليكون منطلَقا في تحقيق الأهداف والبحث عن أهم الأصول المبتنية على التوحيد وتصدّي منصب خلافة الله في الأرض من خلال تبيان قصة الخلَق وحقيقة الكون التي تسمو بالعنصر البشري نحو المساواة وتثبيت مبادئ الحرية ومساهمة روافدها المعرفية التي تسقي مباني الحرية السياسية لتنطلق في أولى خطواتها نحو مواجهة التحديات ومواصلة السّير على نهج متكامل لبناء الأسس التي تستحوذ الاهتمام. وينبغي على الإنسان ألّا يقوم بتفويض حقه في امتلاك الحرية لصالح الآخرين، وفي السياق ذاته وتحديدا على الصعيد السياسي لا يجوز له فرض السيطرة والتّحكم في مصير الآخرين ليجعلهم عبيدا منصاعين، خاضعين، راضخين لنواياه.

يتمحور منهج البحث في هذه الدراسة على أسلوب التفسير الاجتهادي، الأسلوب الذي يستخدم كل المعطيات والمستويات الاستيعابية والإدراكية كالرجوع إلى الآيات القرآنية والروايات التفسيرية، والاستنباطات العقلية، علاوة على مراجعة المفردات، والتركيز على استيعاب وآراء المفسرين، ليتسنى للباحثين الإلمام بمحتوى آيات التشريع القرآنية ذات الكينونة والمواضيع العلمية والفكرية المعاصرة والانتهال من بارد معينها العذب.

تبيين المفاهيم؛ الحرية والعبودية السياسية

يقول مونتسكيو: «لا توجد أي لفظة تنافس كلمة الحرية في ترددها على أقلام الكُتّاب وألسنة المُتحدّثين، فهي القضية الكبرى التي خَطَفَت الأنظار واستقطبت الأفكار، حيث أننا لم نجد أي لفظة تحظى باهتمام متكافئ وعناية فائقة عند الآخرين كهذه الكلمة (الحرية) (مونتسكيو، ١٣٧٩، ص ١٤)، وهناك أكثر من مئتي تعريف وتفسير لمصطلح الحرية (أشعيا برلين، ١٣٧٩، ص١٧). ويقول جون ستيوارت مل[1] (١٨٠٦-١٨٧٣) في مستهل كتاب «عن الحرية» إن موضوع الكتاب «ليس حرية الإرادة والاختيار[2] إنما البحث عن الحرية المدنية والاجتماعية[3] التي تتمحور على الجوهر والقيود المترتبة على القدرة فيمكنها أن تبسط سلطانها على الأشخاص بشكل قانوني (John Stuart Mill, 1999, p. 8). إنّ مفهوم الحرية السياسية يشمل التحرر من القيود الداخلية في السلوك أو الخطاب السياسي أيضا، تلك القيود والأغلال التي تظهر بحلّة جديدة لتشمل الآداب والتقاليد، والتنظيم والتأقلم مع المجتمع، والتصرفات العاطفية (Emerson, 2007, p. 277) وفي تعريف آخر هناك تأكيد على معنى «الحصانة من الإرادة الاستبدادية» (آقا بخشي، ١٣٨٨، ص ٧٥) ويعتقد ألسدير ماكنتاير[4] بأن الحرية عبارة عن استقلال اجتماعي يتمتع به الأفراد في التعامل مع الآخرين (MacIntyre, 2001, p. 23) ويعتقد البعض الآخر بأنها تمثل العلاقات المتحررة من الظلم والاجبار (Marion Young, 1990, p. 65 or see: Sandel, 2010, p. 128).

و كتب «أمارتيا سن» في كتاب «التنمية حرية»: إن الحرية توفر أرضية خصبة للأشخاص لأداء الأنشطة بشكل جاد من أجل خلق الأجواء المواتية للعمل في ظل الظروف التقييدية التي تُخيّم على الموقف (Amartya Sen, 2000, p. 185).

1. John Stuart Mill
2. Free-Will
3. Freedom
4. Alasdair MacIntyre

وهناك آخرون نظروا إلى الحرية من منظار المصطلح الاجتماعي السائد المرتكز على الأسس والأطر الفكرية المهمة للحرية السياسية التي تُبنى عليها المناهج والأنشطة الحرة الهادفة؛ وتجسيدا لهذه الأهداف والمبادئ والأصول، يجب على الفرد أن يتمكّن من المشاركة الفعالة في حياته السياسية والاجتماعية في بلده الأم من خلال انتخاب القادة والرؤوس السياسية، أو تَصدّي المناصب العامة أو السياسية أو الاجتماعية أو الإدلاء برأيه في المجتمع، معبرا عما يجول في مخيلته حسب مقتضيات الزمان والمكان دون أي تضييق أو ضغوط تثقل كاهله (الطباطبايي الموتمني، ١٣٧٠، ص ٩٦).

وقد تُقتطف من شجرة الحرية الباسقة ثلاثة عناصر: «داعم مبادئ الحرية، عَدَم وجود العَقبات، وترسيم الهدف المنشود؛ وقد تنمو نواة الحرية السياسية وتزدهر وتتفتح براعمها، بعد تَمكّن الناس والتنظيمات السياسية المستقلة من بلورة التعامل والسلوك السياسي الأنسب والتّنعم بالحقوق الأساسية التي تُفضي إلى تفكيك الأغلال وتَحطيم القيود واستنشاق نسائم الحرية التي بدأت تَهبّ في كل مكان وانتشر أريجها بعد ما تَمّ خنقها من قِبَل الحكومات المتجبرة التي تستخدم أسلوب الإقصاء أو تضع المُعوقات من أجل وأدها في مهدها (ميرأحمدي، ١٣٨١، ص ١٠٨). ويَتحتّم على الأشخاص والتنظيمات بذل قصارى الجهود من أجل الاستفادة من مميزات الحرية الشخصية بغية الوصول للغاية والهدف المنشود والعمل بفاعلية من أجل تحقيق الطموحات.

ويؤكد «جلين تيندر» بأن الحرية حالة خاصة تجعل الإنسان مترفعا عن المقاصد السيّئة والنوايا الاستبدادية المستمرة المتمثلة بِكُل الجهات المعنية بالحكومة وأرباب العمل، والأقارب، أو آخرين (تيندر، ١٣٧٥، ص ١٠٩).

ويمكننا القول بأن النقطة المشتركة لهذه التعاريف التي تم التطرق إليها هي الاعتراف بالحقوق السياسية والاجتماعية للمواطنين من أجل التدخل في تعيين المصير والمشاركة البناءة والإشراف الدقيق على العملية السياسية، إضافة إلى

الحضور النّشط في إدارة شؤون الحكم والجهات التابعة، من أجل التعرف على المُتطلبات الخاصة بالعمل الذي يُركّز على المهام ويُحدد الاحتياجات والشروط اللازمة لتنفيذ المشروع على النحو الذي لا يمكن للآخرين ممانعة ممارسة أنشطتهم السياسية. وتأسيا بمصداقية الرؤية القرآنيّة الأكثر شمولية، وبالنظر إلى محاور الفكر السياسي الإسلامي، نلحظ زوايا متعددة تفتح آفاقها المضيئة نحو الحرية. ولابد من بيان حقيقة مهمة سلّطت الآيات القرآنية الضوء عليها وجعلتها الأساس أو المغزى المستوحى من هذه أركانها، فالحرية السياسية وفقا لهذا المبدأ هي التي تَضُم الأفراد، والمجموعات، والتشكيلات لغرض ممارسة الأنشطة السياسية النزيهة فتمنحهم وتفسح لهم مجال اجتياز العقبات الداخلية للتحرر من المعوّقات السياسية والاجتماعية والعوائق الخارجية وبطش القوة الحاكمة، وتتيح لهم الفرصة ليتمتعوا بحقوق المواطنة ومميزاتها فيمضون قُدُما نحو النّضوج والكمال الانساني. وبالنظر إلى هذا التعريف ستقف الحرية السياسية سَدّا منيعا وحصنا حَصينا أمام العبودية السياسية والأنظمة الاستبدادية التي ترفض رفضا قاطعا الاعتراف بالحقوق السياسية والاجتماعية والأساسية وتَضع قيود مختلفة لتهميشها.

العبودية مصدر عَبَدَ (حالةُ المَحرومين مِنَ الحرية، الخضوع لقوة ما)، وقد وردت هذه المفردة بمعنى الانقياد والطاعة، أي عبُدَ عُبودًا وعُبوديّةً (معجم دهخدا، ١٣٨٥، ذيل الكلمة) وأصل الكلمة بمعنى الطاعة، إذ يتحتّم على المرء عبادة القِدّيس واتّباع أوامره والركون إليه، فهو المُطَهّرُ ذو الفضائل والسجايا الكريمة، والمتميّز بِالقِيَمِ الأخلاقيّة السامية، وهو جدير بالتقديس والتعظيم. أمّا في المضمار السياسي فَقَد يُصَنّف الانقياد والانصياع الأعمى للشخص القَوي نَمَطا من أنماط العبودية السياسية، وقد يَصِل الانقياد الأعمى للسلطة والانبطاح أمام جبروت القُوّة بعض الأحيان إلى حد تقديس أصحاب القوة وتَأْلِيهم لإبقاء الرؤوس مُنحنية ملتصقة بالأرض بعيدا عن المنطق والتفكير.

الأصول والمبادئ التّحررية للعُبوديّة السياسيّة

١. التوحيد، مبدأ الحرية

إنّ التركيز على مقولة التوحيد والصراع المحتدم بين المعارضين لهذه الفكرة يسوقنا إلى الحرية السياسية التي تُعتبر النقطة الارتكازية في الصراع الرئيسي للأنبياء في مناهضة الجبابرة على الصعيد الاجتماعي. إنّ أول رسالة وجُهّت للمسلمين قاطبة واستُوحِيَت من دلالات القرآن الكريم وإرشادات النبي الأكرمﷺ، كانت تدعو لتحرر هؤلاء من هيمنة الجبابرة وأرباب الدرهم والدّينار، وأصحبت السّمة البارزة لهذا الصراع التاريخي المَرير الذي كان يتردد صداهُ المُثير للانقسام في العقود الماضية وأفضى إلى مواجهة هؤلاء المتغطرسين، فكان له بِدورِه نتيجة مباشرة في التحرر من القيود الداخلية، وباعتبار هذه الحقيقة يقول الإمام الصادقعليه السلام:

نَمسُ خِصالٍ مَنْ لَمْ تَكُنْ فِيْهِ خِصْلَةٌ مِنْهَا فَلَيْسَ فِيْهِ كَثِيْرُ مُسْتَمْتَعٍ: أولها الوفاء، والثانية التدبير، والثالثة الحياء، والرابعة حُسن الخلق، والخامسة وهي تجمع هذه الخصال (شيخ الصدوق، ١٤٠٣هـ، ج١، ص ٢٨٤).

و من الخطوات التي تُعَدُّ واحدا من أهم الأهداف التي اتّخَذَها الأنبياء والنبي الأكرمﷺ، استئصال جذور الاسترقاق ومحو الصور الاستزرائية التي شحنتها ثقافة العبودية في الأذهان واثقلت كاهل الإنسان، من هنا تأتي أهمية فَكّ القيود وتحطيم أغلال الاستبداد والتّعسف والاحتقان السياسي ليأتي دور فتح السلاسل التي تُكَبِّل الأرجل والضمائرالإنسانية وفي سياق هذا الإنذار والتذكير القرآني، تَمّ الاعتراف بالكرامة المتأصّلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية التي تعتبر أساس الحرية الفردية لدى الإنسان. وأمام هذا الحال لابد مِن أن يكون الانقياد والانصياع والاستسلام لله وحده لا شريك له ولأوامر الوحي الإلهي دون اعتراض، حيث تؤول مجمل الأمور إليه جَلّ وعلا، وليس لأحد أن يعتدي على حقوق الآخرين أو يسعى لاسترقاق الناس أو

استعبادهم، وبالاستناد إلى هذه القاعدة والنظرة الفاحصة المُدّققة، ستبدأ مرحلة بناء وتشييد أكبر قاعدة أساسية متأصلة لحرية الإنسان وفروعها وأصولها المنهجية المتكاملة، وتسير الأمور على نحو أفضل ليتحرر الإنسان من كل القيود عدى عبودية الله، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يستحق العبادة دون سواه، والعبادة حق الله على العباد وهي ليست حقا لسواه، والحُكم هو حكم الله ودونه باطل:

﴿مَا تَعبُدُونَ مِن دونِهِ إلّا أسْمَاء سَمّيتموها أنتُم وآباؤكم ما أنزَلَ الله بِهَا مِنْ سُلْطَان إنِ الحُكْمُ إلّا للهِ أمَرَ ألّا تَعبُدُوا إلّا إيّاهُ ذِلك الدّينُ القَيّمُ ولكنَّ أكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمون﴾ (يوسف، ٤٠).

و يجب أن تكون العبادة المتمثلة بالانقياد والاستسلام المحض لله وحده عزوجل دون سواه، بالرغم مِن أنّ الأغلبية العظمى من الناس لا يدركون هذه الحقيقة الذاتية ولا يتحملون بتاتا مسؤولية تصرفاتهم المشينة التي تنبع من الأنانية والقسوة، إنّهم يُسممون الأجواء ويقعون في حظيرة العبودية ومستنقع الانقياد للآخرين، غير آبهين بما يلحقهم من ضرر أو يصيبهم من أذى.

وبالرغم مما نرى من تأكيد بالغ على التّمسك بأحكام الله صاحب الحاكمية العليا وحبله المتين وأوامره السماوية النيّرة ودخول هذه الأحكام والقوانين الإلهية حيز التنفيذ لتكون ذات قوة شرعية قانونية وأثر كبير في المجتمع الإسلامي، إلا أنّ هناك نقطة جوهرية يجب الالتفات إليها، لذا نرى بأنّ القرآن الكريم يشرح ويُبيّن لنا بصريح العبارة، أنّ هذه المسيرة الإلهية تجري بوتيرة سريعة فتكون نقطة الانطلاق الكبرى والركيزة الأساسية لتثبيت حاكمية الله وبالتّالي ترخي بظلالها على واقع الحياة، لكن هذا الأمر لا يعني أبدا إجبار الناس بما لا يريدون أو فرض السيطرة عليهم من قِبَل الرسول الأعظمﷺ من خلال بسط نفوذه أو إرادته على الآخرين:

﴿فَذَكِّرْ إنّما أنتَ مُذَكِّرٌ، لَسْت عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (غاشية، ٢١-٢٢).

المُصَيْطِر بمعنى الشخص الذي يسيطر على فرد أو شيء حتى يُشرِف عليه أو يَتعهّد بِشؤونه، والآية الشريفة تخاطب الرسول الأعظمﷺ بقولها: ليس من المُقرّر أن تجبر أحدا على الانقياد والطاعة المنضوية تحت لواء منظومة التعاليم السماوية والاعتقاد بالله ورسله ووحيه (الشوكاني، ١٤١٤هـ، ص ٥٢٤) وقد جاء في تفسير «نهج البيان عن كشف معاني القرآن» بأنّ «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ» يوحي بهذا المعنى، بِأنّك (أيّها الرّسول) مهما بَلغتَ من درجة سامية ومكانة مرموقة، إلّا أنّك لا تستطيع أن تفرض سيطرتك وهيمنتك على الآخرين (الشيباني، ١٤١٣هـ، ص ٥٣٧).

لذا نرى جليا بأنّ الفكر السياسي الإسلامي لا يرتكز على بُعد واحد دون الأبعاد الأخرى، فهو ليس شأنا فرديا محضا ولا شأنا اجتماعيا - سياسيا محضا، وتكون المعادلة: إنّ هذا الفكر فرديّ النزعة، جَماعيّ الشكل، سياسي الطابع والمضمون، حيث لم يَكُن مُنقَطِعا عن الوحي والتعاليم الوحيانية بل ينطلق ويسمو في فَضاءٍ رَحب معطر بالقِيَم الإنسانية لينتهل من الأوامر اللهية وآي الذكر الحكيم؛ وفي خِضّم هذه الأجواء الإنسانية الرّحبة المُضَخَّمة بعطر المودة والتراحم والتعاطف تَهبّ رياح التغيير، وهذا ما يَجُرّنا إلى مناقشة مبحث الحرية السياسية التي تبدأ مسيرتها من خلال تنظيم العلاقات الإنسانية تأسيا بالرسالة الإلهيّة وأوامر الله، وبالنظر إلى هذا التعريف، لم نتوصل إلى إنكار وجود الخالق العظيم الذي لم ولن تكون أوامره الربانيّة تقييدا أو تقليصا للحرية، بل على النقيض تماما مما كان متوقّعا، نجزم بأنّ العبادة والتّبعيّة الكاملة والانصياع لله عزوجل هي الطريقة المثلى التي تُوصِل الإنسان إلى الحرية والتحرر من الاستعباد والانبطاح للبني البشر. والإنسان عند المُضّي قُدُما نحو عبودية الله يدير ظهره للاستعباد ويصبح «الله» في القاموس القرآني، الخالق الوحيد للإنسان والمعبود الذي يُبيّن للحرية حدودها، حيث لا يمكن لأولئك الذين يَحمِلون صفات إنسانية أن يجدوا

طريقا لتقييد حقوق وحرية الإنسان، فالإنسان بطبيعة الحال يرفض الركون إلى الجبابرة والاستسلام للقوة القَسريّة أو الانغماس بالمال والثروة، مثلما يتجنب الرضوخ لغرائزه الشهوانية والنفسانية، وستخرج الحرية السياسية والخارجية بمعان ومفاهيم جديدة إذا ما اقترنت بالحرية الداخلية، وفي ظِلّ هذه الأجواء سيحظى الإنسان في المجتمع الإسلامي بحرية الاختيار في الأقوال والأفعال ويُقرّر مصيره بنفسه ويخطو خطوات واضحة المعالم ومُحَدّدة الأهداف والمراحل لخوض غمار طريق السعادة الحقيقية التي تكمن في التكامل الروحي لِكَي تتسنّى له فرصة الاختيار التام في تعيين الحقوق بالاعتماد على العَقلانية المنبعثة من الوحي؛ تلك الأجواء المعنوية التي تفتح له نافذة مشرقة مضيئة مطلّة على المستقبل المُزهر. وبناء على هذا الفكر التّقدمي الراقي يتمكن الإنسان مِن إقامة علاقات مدروسة ومتوازنة مع الطبيعة و البيئة التي يعيش فيها، ويتواصل مع سائر الناس، علاوة على تنظيم علاقته مع الخالق.

٢. التحرر، رسالة أنبياء الله السامية

إنّ القرآن الكريم هو المَعين الذي لا يَنضب والمصدر الأول الذي يَتغَذّى منه الفكر الإسلامي، وفي السياق نفسه يتبين لنا أحد أهداف هذا الفكر الذي يطمح إلى اجتياز العقبات من أجل إيصال الإنسان إلى شاطئ الحرية، في الوقت الذي تُعتبر الحرية إحدى أهم الركائز التحفيزية لترسيم الأهداف المنشودة للنظام السياسي المُستوحى من هذا الفكر الرصين الرائد . فالحرية من منظور هذا الكتاب السّماوي المقدس تبلغ من الأهمية بمكان ليصبح لها دورا رياديا يرتكز على المحاور الرئيسة والأساسية لحركة أنبياء الله:

﴿**يَضَعُ عنهم إصْرَهم والأغلال الّتي كانت عَليهم**﴾ (الأعراف، ١٥٦) إنّ لُبّ وماهية العمل في تجنب الطاغوت الذي يُعتبر تجليا حقيقيا للحاكم الجبار المتغطرس،

يشكل مساحة فسيحة تتيح التفاعل وتبادل الإيقاع مع الأطراف المعنيين، وهي من شروط تطبيق الحرية وضوابطها التي تؤدي إلى تحرر الإنسان من القوى التعسفية المنبوذة.

ويَعتبرُ القرآن الكريم فرعون ونمرود والطواغيت الأخرى رموزا لاستعباد الإنسان على الأرض، وخلال سَرد القرآن التاريخي لسيرة الطواغيت الذاتية وحياة الظالمين هناك إشارة واضحة بأنّ هؤلاء يَسحقون تحت وطأةِ أقدامِهم حقوق رعاياهم، يقتلونهم، يُبقون النّساء على قيد الحياة، (**للاسترقاق**) (غافر، ٢٥)، ﴿**يعذبون الناس**﴾ (الأعراف، ١٤١)، ﴿**يضايقونهم ويَقضّون مضاجعهم**﴾ (الأعراف ١٢٩)، ﴿**يسلبون الانبياء والرّسل حق حرية الإسكان، يُخرجونهم من ديارهم**﴾ (إبراهيم، ١٣)، ﴿**يسلبون الناس حق حرية الاختيار**﴾ (الأعراف، ١٢٣)، ﴿**يسلبونهم حق حرية اختيار المذهب والفكر**﴾ (الشعراء، ٤٩) ﴿**ويَزجّون المواطنين في السجن**﴾ (الشعراء، ٢٩).

إننا نَقرأ في القرآن الكريم بأنّ الأنبياء جاءوا يدعون الناس لعبادة الخالق وتجنب الطاغوت:

﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنا في كلّ أُمَّةٍ رَسولاً أنِ اعْبُدُوا اللهَ واجْتَنِبُوا الطّاغوت**﴾ (نحل، ١٣٦).

انطلاقا من هذا القرار الالهي المصيري وظروفه القاهرة الغيبية، يجب إقصاء التيار المتمرّد والمُقيِّد للشعوب من كل المعادلات السياسية ويصبح «**الله**» قُطب الرّحى في المعادلات والتعاملات ليَستمرّ قرار الحذف وثقافة الإقصاء ويكون هو (جلّ وعلا) منقذ ومحرِّر الناس من هيمنة المستبدّين والأنظمة التعسفية الدكتاتورية التي تَتشبّث بكل الأذيال والذرائع حتى تُجرّد الناس من حريتهم وتقوم بخلق أجواء مفتعلة تؤدي إلى الاحتقان والاختناق السياسي لتنفيذ نواياها الخبيثة، ويعتبر القرآن الكريم فرعون، ونمرود والطواغيت الأخرى نماذج إنسانية توظّف سياسة القمع والكبت والإبادة الجماعية لإقصاء الناس وتهميشهم، مثلما كان إبراهيم عليه السلام، وموسى عليه السلام وساير الانبياء والرسل رموزا للحرية والتحرر وسفينة

نجاة تنقذ العبيد والرّق من هيمنة الطواغيت. إنّ التّمسك بالرسالة الإلهية وتجلياتها ومشروعها التنويري سيؤدي إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور فلابد للمبادئ أن تتجلى في واقع حي، من هذا المنطلق يأتي دور القادة الإلهيين الذين قد بعثهم الله من أجل إرساء مبادئ الحرية ووضع حجر الأساس لتشييد المجتمعات البشرية ومناهضة تقييد الناس واسترقاقهم من قِبَل الجبابرة وتحريرهم من الظلم والاضطهاد الذي انتابهم طيلة القرون المتمادية، الأمر الذي أدى إلى الصراع والمواجهة المستمرة بين الجبابرة الذين يأسرون الناس من جهة والمنقذين المصلحين من جهة أخرى، وتؤكد رسالة انبياء الله على نقطة جوهرية تستهدف المصالح السياسية - الاجتماعية غير المشروعة التي استحوذ عليها الطواغيت، الذين كانوا يسعَوْن بكل ما يمتلكون من قوة غير شرعية وقبضة حديدية القضاء على الأنبياء وأتباعهم مستخدمين أساليب متعددة في مقام المواجهة بدأ من القتل والتكذيب والتعذيب والتنكيل مرورا بالتشكيك في عصمتهم.

وبِالرغم مِن اعتبار الحقوق الأساسية والصفات الطبيعية والفطرية، المنبعثة من المكوّنات الإنسانية ومعطياتها المتنوعة وتفرّعاتها، جزءا لا يتجزّأ من حق الحياة والتّمتع بحق الحرية، وقرينا أو شبيها بالإنسان بالنظر إلى مقوّمات خلقته وتميّزه بصفات متعددة كالثبوت والدّيمومة والاستمرارية، لكنها قد تتعرّض لانتكاسة كبيرة فتُسلب منه حقوقه أحيانا بعد انغلاق الفضاء السياسي أو انعدام الحرية على يد الجبابرة وأصحاب القدرة المُطلقة، فإذا ما اقتحم الإنسان ساحة استيفاء حقوقه السياسية فإنّه بطبيعة الحال سيواجه بوتيرة متسارعة المزيد من التطورات التي قد تتوالى وتنحدر بصعوبات جمّة وتحديات كبيرة.

٣. الإنسان، مخلوق حر

بالاستناد إلى مؤشرات المَنطق القرآني يجب أن نتذكر دوما بأنّ الحرية هي بمثابة طريق واضح لِمن يبحث عن الحق والصراط مستقيم، لإيصال الإنسان إلى

الكمال وتَوَلِّي منصب الخلافة الإلهية، حيث لم يكن مفهوم الحرية في النظام السياسي الإسلامي الهدف المنشود الذي يستقطب كل الاتجاهات، بل هو يعمل كهدف وسيط حتى يتمكن المجتمع الإسلامي أن ينطلق في المسار الصحيح ويخطو خطوات متوازنة لنيل السعادة التي لا شَقاء بعدها، فهي التي تُعتبر الهدف الرئيسي لهذه المعادلة بعد تكوين العوامل الموجّهة وتُمهّد الحرية الطريق لتكون نقطة انطلاقة قوية نحو ازدهار المجتمع وتحقيق الأهداف الاجتماعية السامية كالتّطور، والتنمية، والأمان، والوحدة، والتعاون وسائر المُثُل العليا والقِيَم الإنسانية الراقية، فهناك علاقة تكاملية مترابطة بين الحرية والعدالة، إذ أنَّ العدالة لا تتأتى إلا عن طريق التّوق إلى تحقيق الحرية، فإذا ما بلغت الحرية ذروتها وتوسّعت رقعتها في مساحة شاسعة وأطلقت العنان لحوض المزيد من التّحديات، عندئذ يمكننا تصنيفها في دائرة مكامن الخطر الذي تمتدّ براثنها الحادة إلى مبادئ العدالة والكرامة الإنسانية، وهذا ما يجعلنا أن نَجزم بأنّ الحرية انجرفت عن مصيرها الصحيح وانزلقت عن مرتبتها ومهمتها الرئيسة، فإذا كانت حرية التعبير تُفضي إلى قذف التُّهم، وزعزعة الاستقرار وتُخلّ بالأمن العام، وتتطاول على المقدسات، وتُروّج الفِسق والفجور والدّعارة، فحينئذٍ لابد من اتخاذ خُطوات تَمهيدية مُلحّة لفرض القيود والحد من زحفها في شرايين المجتمع وكبح جماح توسعها.

إنَّ الإنسان وكُلّ ما في الكَوْن من كائنات مَخلوقٌ لله سبحانه، وإذا ما اعتبرنا كُلّ كائنٍ مخلوق عبدا لخالقه العظيم، فإنّ عقل الإنسان وقواه الفكرية قد تجعله أن يدرك ويستوعب حيثيات هذه العبودية، لذا نرى بوضوح مدى الاهتمام البالغ في التطرق إلى العبادة الإلهية في القرآن الكريم، تحديدا في مبحث الذات الإلهية العليا التي تخدر منها البراهين العقلية، فالخطاب مُوجّه إلى «أولي الألباب» و«ذَوِي العقول». ويطلق القرآن الكريم على الذين يعزفون عن عبادة الله لفظة «سفيه»:

﴿وَ مَنْ يَرغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبراهيمَ إلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة، ١٣٠).

و بِحُكم العقل يجب على كل مخلوق أن ينصاع لأوامر خالقه، إذ أنّ كل معلول تابعٌ لعلته، والكمال المُتَصّور لكل كائن حي هو أن يتحرك ويخرج من التقوقع تأسيا بنظامه التكويني، وبِما أنّه يجهل بشكل أو بآخر ملابسات وتفاصيل هذا المسار ولم تكن لديه معرفة كاملة بهذا الهدف الأسمى والمبتغى لكل إنسان، لذا يَتحتّم عليه أن يخضع للتعاليم الربانية والهداية الإلهية.

و إذا ما تلقّى الإنسان بوعي ودراية مَفهومَي «خالقية الله» سبحانه للكون و«مَوْلَوِيّته» وجعل نُصب عينيه دراية الخالق وعلمه اللامتناهي بكل شؤون الحياة وخلق الإنسان والعالم، وأصبح على أرض الواقع مطيعا لله خاضعا لهذا الأمر الواقع بأنّ الكَوْن بِرُمتّه مخلوق لله عزو جل، فحينئذ سيبلغ طَوْر النّضوج الحقيقي والكمال العقلي.

لذا نرى بأنّ مفهوم عبودية الإنسان لله يتخذ منحى متميّزا، ليطرح نفسه ضمن أهم مراحل الكمال الإنساني الذي كان محطّ اهتمام كبير ونقطة ارتكاز الباري عزوجل في محكم كتابه المجيد حيث يمكن للإنسان أن يجد الطريق إلى الكمال الحقيقي ويتصل إلى الحق. ويؤكد القرآن الكريم تأكيدا بالغا على عبودية المخلوق في رحلة الإسراء والمعراج من خلال عروج أعلى نموذج متخلق بأخلاق الله تعالى وأسمى مُثُل عليا للإنسانية الرسول الأعظمﷺ إلى السماوات العُلى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذي أَسْرى بِعَبْده**﴾ (إسراء، ١).

و يُؤسس القرآن في هذا السياق منهجا متكاملا للتفكير الواقعي بأسباب نزول الوحي وفضل القرآن الكريم وعظمة نزوله على الناس وأثره في نفوسهم، وأسباب الرضوخ لعبودية الله، بقوله تعالى:

﴿**الحَمْدُ للهِ الَّذي أَنزلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ**﴾ (الإسراء، ١)

أو قوله:

﴿**فَأَوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**﴾ (النجم، ١٠)

انطلاقا من هذا الأمر، وفي الحديث عن خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تمكّن

أن يتغلب على نفسه، ليصبح إنسانا صالحا كاملا مقربا من الله، وهو في درجة عالية تجعله في مصاف الملائكة بل في درجة أعلى منهم، فهذا مَردّه العبودية والخضوع للخالق عزوجل:« مَن هو المولى؟ الذي يُحرّرك من القيود.»

إنّ أسمى منازل القرب والخضوع للمولى سبحانه وتعالى، يتجلى في تحقيق الاستسلام والعبودية لله، الأمر الذي يحفزّ الإنسان حتى يتحرر من كل شيء عدى التعلق والتّمسك بخالق الكون، وهذا ما يجعله في موقف الرفض لعبودية الأهواء الشخصية أو الأصنام البشرية.

وتُقدّم الرؤية الكونيّة التوحيدية شيئين متميّزيْن لكل إنسان؛ المحور الأول يرتكز على عبودية الإنسان للخالق والمحور الثاني يتبلور في التحرر من العبوديات الأخرى؛ فإذا ما كان الإنسان عبدا مطيعا محضا للخالق سبحانه وتعالى وخَصّص عبوديته لله لا تَزِلّ به القدم ولا ينزلق أبدا للعبوديات الأخرى أو الانقياد لغير الله فإذا ما أدرك الإنسان ربّه بكل عظمته وجلاله وجبروته، ستصغر في عينه الأشياء وتفقد قيمتها، كما أشار المولى أمير المؤمنين× في خطبة المتقين إلى هذا المعنى:

عَظُمَ الخالقُ في أنفسِهم فَصَغُرَ ما دونَهُ في أعيينهم (سيد رضي، ١٤٢٧هـ، خطبه ١٩٣).

و يتجلى الخالق وعظمته في أنفُس المتقين وفي المُحصّلة يصغر ما دونه في عيونهم (ر.ك: جوادي آملي، ١٣٧٨، صص ٤٩-٥٠).

و لهذا السبب نرى الإمام علي‌ؑ الذي ينظر إلى عبوديته الخالصة لله سبحانه وتعالى كمصدر لاعتزازه وفخره وسؤدده:

«إلهي كَفَى بِيَ عِزّاً أن أكون لكَ عَبدًا وكَفَى بِيَ فَخرًا أنْ تكونَ لِيَ رَبّا» (سيد رضي، ١٤٢٧هـ، نامه ٣١).

من الحُريّة إلى الحُريّة السياسية

لعلّ أولى وأسمى معاني الحرية التي تجول في مُخيلتنا وكانت مثار نقاشات عديدة

منذ القرون الماضية في المجتمعات الإنسانية، هو مصطلح ومفهوم «نبذ الاستعباد» و«التحرر من العبودية». وفي الوقت الذي كان يُقال قديما بأنّ هذا الشخص من الأحرار كان هذا يوحي بأنه لم يكن رِقّا أو عبدا لأحد. أما في عصرنا الراهن فنحن لم نر رواجا لمفهوم الرّق في أي دولة من الدول رغم استمرار بعض جوانب العبودية الحديثة والعبودية السرّية المخفيّة عن الأنظار في جميع أنحاء المعمورة.

وعندما يشير راغب الأصفهاني إلى مصطلح «الحرية» فهو يربطها بالعبودية، يقول: للحرية مَعنيَيْن، فالمعنى الأول يدل على الشخص الذي لا يتمّ تنفيذ حُكم غيره عليه، أي أنّ القصاص منه دون غيره من الناس، فلا تجاوز بالقتل إلى غيره ممّن لم يقتل، كما تشير هذه الآية القرآنية الشريفة إلى هذا المعنى:

﴿**الحُرّ بالحُرّ**﴾ (بقرة، ١٧٨)

و هذا ينص على تحرير الإنسان:

﴿**فَتَحرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمنة**﴾ (نساء، ٩٢).

أما المعنى الثاني يَدُلّ على شخص يَترفّع عن الصفات الذّميمة كالجشع وشهوة حب الدنيا وجمع الأموال والإقبال على الشهوات الأخرى، استنادا لهذه الآية الكريمة:

﴿**نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**﴾ (آل عمران، ٣٥).

ويعتقد البعض في تفسير «مُحَرَّرًا» بأن السيدة مريم عليها السلام كانت قد نذرت ابنها بشرط أن لا يَظفُر بمال الدنيا وجعلته نقيا نزيها متأهبّا للعبادة الخالصة لوجه الله (راغب الأصفهاني، ١٣٧٣، ص ٢٢٤).

إنّ صناعة العبيد والأجواء الضبابية التي يكتنفها الغموض تأخذ منحى خطيرا جدا عندما يتخذها أصحاب القوة والجبروت والذين ينشرون المشاعر السلبية والسموم الفكرية القاتلة بين الناس، كذريعة لتحقيق نواياهم الخبيثة تؤثر سلبا على مصير الحريات الداخلية والخارجية، فحبذا لو جعل الإنسان نفسه رهينة لعبودية

الخالق الأحد الصمد ليخرج من دائرة مُقَيّدي الحرية، والمتألّهين البشر، والجبابرة المتغطرسين عديمي الأهلية، ويصل إلى حرية منقطعة النظير لا تُضاهى ولا تبارى، ومن جميل ما نلحظه، التفافة قرآنية رائعة تؤكد على هذه الحقيقة بأنّ المعبود الأحد والسيد الحقيقي والمالك لكل الوجود هو الله تبارك وتعالى:

﴿قُل يا أهلَ الكتابِ تعالَوا إلى كَلِمةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُم ألَّا نَعْبُدَ إلَّا اللهَ ولَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئا ولَا يَتَّخِذَ بَعْضُنا أرْبَاباً مِن دونِ الله﴾ (آل عمران، ٦٤).

و بعد تحقيق شروط عبادة الله وثبيت عبوديته عزوجل تتحطم هيمنة المَوالي وتنكسر القيود وتتزحزح العقبات الداخلية والخارجية. وتُصرّح الآية الكريمة بأنّ الناس يجب أن يحافظوا على العهد ويتميّزوا بالثبات في الرّأي والتّحلي بالقناعة النفسية (نبذ عبودية الآخرين).

وبعد ما يقتفي الإنسان أثر الحرية المعنوية يتحرك في ساحة العمل ليخطو خطوات متسارعة للمضي قدما نحو الحرية السياسية. وبالاستناد إلى قول العلامة المطهري﵀، يأتي مقترح عبودية الله الذي يرتقي بالإنسان إلى العلى والفضاء الروحاني اللامحدود الذي سينطلق به الإنسان إلى رحلة متواصلة ونقاوة لا حدود لها (ر.ك. المطهري، ١٣٧٨، ص ١٣٧) من جهة أخرى ستمنح التقوى الحرية المعنوية للإنسان، فتنقذه وتحرره من الأسر وعبودية الأهواء والنزوات، وتفك رقبته من حبال الجشع، والطمع، والحسد، والشهوة، والغضب، وفي هذا السياق تضع حدا على مراتب الرّق والعبوديات الاجتماعية لتغير تنظميها وتنسيقها. «الناس الذين لم يكونواعبيدا للدرهم والدينار والمناصب الدنيوية وحياة الترف والبذخ، ولا يخضعون ولا يرزحون أبدا تحت نِير العبودية ووطأة الاستعباد والتبعية الاجتماعية» (مطهري، ١٣٧٦، صص ٢٠٧-٢٠٨).

وسيبتعد الإنسان مسافات شاسعة عن صفات الرذيلة والخصال الذميمة بعد أن يتذوق شَهد عبودية الله ورحيقها المختوم الذي يبشّر بالتّحلي بالتقوى وخير الزاد، وهذا ما عبّر عنه الإمام علي﵇ بقوله:

إنّ تَقوى اللهِ... عِتقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ ونَجاةٌ مِن كُلِّ هَلَكَةٍ (سيد رضي، ١٤٢٧هـ، خطبة ٢٣٠).

وعند إمعان النظر وإجالة الفكر في الأسباب وحيثيات مجموعة من العوامل التي تدور حول هذا المحور نلحظ بكل وضوح وشفافية خيوط العلاقة الوثيقة بين الحرّية السياسية - الاجتماعية والحرية الداخلية من جانب والتحرر من عبودية النفس والاستكانة للشيطان من جانب آخر ؛ ومثلما يُصنّف القرآن الكريم التبعية العمياء للقوانين المنسوجة من أفكار وأذهان البشر وأوامر القوى الفرعونية والطاغوتية تجليا وانعكاسا للعبودية، يُصنف الانقياد للنزوات والرغبات الغريزية في قائمة الترتيب لأنواع العبودية التي تندرج ضمن هذه الفئة. وبعد استعراض الآيات القرآنية، نصل إلى المرتكز الأساسي الذي يتمحور على اللوم العنيف وتقريع ومذمّة أولئك الذين ينقادون للشهوات والغرائز ويصبحون عبيدا لها؛ وفي ما يتعلق بالانقياد للأهواء والانزلاق في الشهوات، وتأسيا بأسلوب التوبيخ والتقريع، ورد في الذكر الحكيم هذا المعنى:

﴿**أَرَأَيتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواه**﴾ (الفرقان، ٤٣).

و جاء في تفسير «منهج الصادقين» لابن عباس بأنّه فسّر هذه الآية على النحو التالي: وهل رأيت الذي تَرَكَ عِبادةَ خالقِه واتّبع آمالَهُ وأمنياتَهُ الباطلة، وعَبَدَ الحَجَر أو الخَشَب وثَبُتَ على عقيدته المنحرفة ووضع الحَجَر الأساس لمبادئ هذه الديانة الوثنية الوضعية وشَيَّدَ أركانها وأسسها الفكرية على هذه القناعات الهشّة دون الاكتراث بالحُجج الدامغة أو النظر إلى دليل وبرهان (الكاشاني، ١٣٣٦، ص ٣٥٨). وجاء أيضا في تفسير المحدّث القمي بأنّ هذه الآية نزلت في قريش عندما ضاقت بهم السُّبُل في مكةَ ونزحوا من ديارهم قسرا فَتَفَرّقوا وتَشَتَّتوا وآلَ بهم الأمر إلى حالة كارثية يُرثى لها، فما إن يرى كلّ واحد منهم شجرة أو حجر جميلٍ ينال أعجابه، حتى يعبده ويُسلّم إليه أمره، ثم يَقدّم له كبشا كَقُربان، ومن ثَمّ يلطخون الصّنم بِدمِ القُربان، فإذا مَرِضَت جِمَالهم أو أغنامهم كانوا قد يَفركونها بجسم المعبود

الوهمي لغرض الشفاء، وقد بَقَوا على هذا المنوال فترة طويلة حتى جاء رجل برفقة جَمَل فقصد أن يفرك هذا الحيوان بحجر يُدعى «سعد صخرة»، وفي هذه الأثناء هاجَ الجمل وسقط وانكسرت أعضائه، فَنَظَمَ صاحب الجمل أبياتا في مذمة ذلك الوثن، مضمونه: إننا جئنا لكي نتذوق شَهد السعادة بالتشبث بـ «سعد» لكننا بِتنا أشقياء تعساء وذهبت آمالنا أدراج الرياح، إنّ هذا الحجر عديم الفائدة ولا يعرف الهِرّ مِن البِرّ، فكيف يُميّز بين السعادة والشقاء (القمي، ١٣٧٦، ص ١١٤ ر.ك. البحراني، ١٤١٦هـ، ص ١٣٨) وخلاصة القول لابدّ من التنويه بهذه الحقيقة المريرة التي سجّلها التاريخ في ما مضى من الزمن، حيث أنّ الناس كانوا قديما يتشبثون بأذيال حاجاتهم ورغباتهم وأميالهم الشخصية ليخلقوا لأنفسهم معبودا وهميا يلجؤون إليه، ولاريب أنّ هذا المسار المترنّح يجعل الإنسان عالقا بعقائده المهترئة وأفكاره الواهية المندرسة وتخيلاته الفاسدة وتوهماته الباطلة. فبعد التّنصّل من قيود الشيطان الداخلي والمُعتقدات الزائفة الباطلة ستظهر آفاقا جديدة وسترسل الحقيقة نورها المشعشع لتضيء الفضاء وتُعبّد الطريق لتحرير الإنسان من قيود الجِبْت والطاغوت الخارجي.

و تجدر الإشارة في هذا الإطار إلى عدم حدوث المواجهة بين الحرية وعبودية الله، إذ ينبغي على الإنسان ألّا يصبح عبدا لإنسان آخر يُشبهه في الصفات الإنسانية ولا أفضلية له عليه، إنما يجب عليه أن يعبد خالقه الذي خلق هذا الوجود والكون العظيم، وكل شيء مُلكه وعبيده وتحت قدرته وقهره، وهو المُشرّع الذي يَسُنّ الشريعة ويَحقّ له وضع الأوامر والنواهي والتوجيهات.

«إنّ الحرية من وجهة نظر الإسلام بمعنى التحرر من الانقياد والعبودية لغير الله»، فالحرية الحقيقية التي يتمتع بها الإنسان تتجلى في الاستغفار الذي ينقذه ويقطع حبال المعاصي والذّنوب الماضية. وهذا هو الانعتاق الذي نُعبّر عنه بالحرية، إذ هي المسيرة النّيرة التي يمكنها أن تكون انطلاقة قوية مُدويّة للحياة الأصيلة والرفيعة، وهذا هو التطبيق العملي والتفسير المؤول لـ «فكّ رَقَبة» . ومن

المؤسف جدا بأن نرى روّاد وأتباع المدارس القانونية الأخرى يزعمون أنّ حرية الإنسان تعني قدرته الشاملة في اختيار أي شيء، ومِن تلكم الأشياء هي العبودية لغير الله.

من وجهة نَظرهؤلاء، الإنسان كائنٌ حرٌّ لديه الحرية الكاملة في احتضان الدين أو رفضه على حدّ سواء، إنّهم يعتبرون الدين بأنّه بات أمرا اعتباريا اعتياديا يبتني اختياره على أساس السلائق الشخصية، وبِناء على ذلك يمكن للإنسان أن يختار دينه ومذهبه ويتمسك بمعتقداته الشخصية أيّا كانت مثلما يَحِق له اختيار المنزل، والملبس والمأكل، فالدّين وفقا لهذه الرّؤية يرفض الاعتراف بالبراهين والحجج الدامغة ويخدر من الأعراف وتقاليد الناس.

و على النقيض من هذه الرؤية، تَنظر مدرسة الوحي إلى هذا الانفلات المطلق والاستهتار المنبوذ، بأنه من مظاهر العبودية بذاتها، فإذا ما كان الإنسان حرّا طليقا يفعل ما يشاء ويطلق العنان إلى رغباته ويختار كل ما يعجبه من بِدَعٍ وخرافات ليُسمّيه دينا أو مذهبا، فحينئذٍ يصبح عبدا لآماله ونزواته وأهوائه وينقاد إليها بالكامل (جوادي آملي، ١٣٧٩، ص ١٩٠) ونظرا لهذا الأمر بالغ الأهمية «تُعتبر الحرية في الإسلام، نقطة التباين أمام العالَم الغربي؛ وعلى هذا المِنوال تبدأ نقطة الانطلاق والبدء في الانقياد والعبودية والإخلاص لله سبحانه وتعالى ومِن ثَمّ ينتهي بها المطاف في التحرر من كل مظاهر الاستعباد والعبودية الدنيويّة» (الصدر، ١٣٦٢، ص ٢٣) وخلاصة القول، يأتي تعريف الحرية بمعنى «تحرير الإنسان من قيود الشهوات والغرائز وتَحَكُّم قوة العقل في إرادته للوصول إلى عبودية الله سبحانه وتعالى».

و قد تطرق الإسلام إلى مفهوم إماتة الشهوات النفسانية على صعيد الحياة الخاصة، أمّا على الصعيد العام فإنه يسعى أيضا أن يقضي على السلطات الاجتماعية - السياسية المهيمنة التي تنتهج نهج الإقصاء والتّهميش فيُحرّر الإنسان من عبوديتها، وبعد إرساء وتثبيت مبادئ عبودية الله على الصعيد العام،

يجعل الإسلام الناس مُصطفيّن في صفوف متراصّة منظمة أمام جبروت الله وعظمته عزوجل؛ إذ لا يحق لأي حزب أو فئة سياسية أو اجتماعية أن تدحض أمان واستقرار وحرية فئة أخرى» (الصدر، ١٣٦١، ص ٨٨).

المَنهج القرآني في مواجهة الطّواغيت وإشكالية صناعة العبيد

لم تُصبح العبودية بَعدُ تأريخا متقوقعا في أروقة التاريخ فحسب فهي لا تزال تأريخا حيّا متواصلا من زمنٍ إلى آخر، حيث أنّ إحدى وجوهها الخَفيّة والمُعقدة كانت سائدة منذ السنوات الغابرة واستمرّت قائمةً حتى يومنا هذا في مضمار السياسة وأشكال السلطة المُتجبّرة، وارتبطت بأساليب صناع القرار في بسط السيطرة واتخاذ ثقافة الترهيب والسلوك السيء، ولا تَؤول الأمور بالضرورة إلى الإذلال والتّصاغر أمام هيبة السلطان، ليتحتّم على الفرد أن ينحني أو يركع له مطأطأ برأسه، فربما تتقمص العبودية أشكالا متنوعة لتظهر بمظهر جديد، ولقد أعاد التاريخ صولته وجولته في تسلسل زمني متواصل لِيُسجل هذه الأحداث مرة أخرى وفي منعرج تاريخي خطير بدأ أصحاب البطش والغطرسة والسلطة المتعجرفة الفاسدة، بذل قصارى جهدهم في مواصلة الضغوط على الإنسان وحاولوا جاهدين أن يَصيّروا مواطنيهم عبيدا منقادين ليطلبون منهم الطاعة والتّبعية المُطلقة العمياء. ولا ريب أنّ مبدأ انطلاق هذه التطورات يظهر في تأرجح بؤرة أركان الحكم ومفاصل القوة السياسية التي تعيد كرّتها بين الحين والآخر، حيث أنّ أول شيء يُسلب من هؤلاء الناس هو حقّهم في التّمتع بالحرية، فالأقوياء كانوا ومازالوا يريدون أن تصبح شعوبهم منقادة، خاضعة، موالية لهم ومنبطحة لا إرادة لها على الإطلاق.

إنّ نقطة ارتكاز إحدى المُنعطفات المهمة المنحدرة من التاريخ تتجلى في مواجهة أنبياء الله مع أرباب السياسة والطّواغيت الأنانيين. وقد جاء السّفراء الالهيين والمبعوثين لِيُطلقوا بأعلى الأصوات صَرخات مدوية مطالِبين بهبوب نسائم

الحرية وإتاحة الفرص المتكافئة لتوفير عناصر التّحرر من قيود الطواغيت والانفلات من السلطة المتجبرة وإنهاء معاناة القهر والتّنكيل، لينطلقوا في نهاية المطاف في فضاءات صافية رحبة تفوح منها بشائر الانعتاق من العبودية؛ ولقد كانت بعثة الأنبياء والمرسلين بداية لمشروع المنبر الرّسالي الواقف في وجه الظلم والجور، حيث كانوا لسان الله الناطق في خلقه معبّرين عن إرهاصات وخلجات قومهم، متّخذين مواقف صارمة أمام هذه الانتهاكات الصّارخة، مؤكدين على رفض الرّق والاستعباد، إذ قالوا بصريح العبارة : ما كان ولا يكون لأي أحد حق استرقاق الآخرين، وجاء في الذكر الحكيم أنّ فرعون كان بصدد «تعبيد» بني إسرائيل، وكان موسى عليه السلام يُطلق صرخة مدويّة في وجه فرعون (ر.ك. سيد باقري، ١٣٩٤، ص ٢٤٧):

﴿وَ تِلكَ نِعمةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أنْ عَبَّدْتَ بَنِي إسْرائيْلَ﴾ (شعراء، ٢٢).

وتُستخدم كلمة «عَبَّدْتَ» في باب التفعيل عندما يستعبد شخصٌ فردا آخر (الطباطبائي، ١٣٨١، ج١٥، ص ٢٦٢) وفي صناعة الرّق هذه، يستثمر المستثمر الأرباح ويَستغلّ ثمرةَ جهود الآخرين ويحاول استرقاقهم.

و كان سيدنا موسى عليه السلام يرى البسط السيئ للسلطة وفرض الهيمنة والسيطرة على بني إسرائيل بأنّه من مظاهر نهج الاستعباد وتقييد الآخرين.

و في إجابة عن سؤال فرعون الذي قال فيه: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًاوَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِيْنَ﴾ (الشعراء، ١٨).

كانت إجابة موسى لفرعون مُدويّة: إن استعباد بني إسرائيل، وقتل أبناءهم وتَنكيلهم، وإبقاء النساء على قيد الحياة واستخدامهنّ القسري لغرض تربية وتعليم الآخرين، هي مِن مَثالبك الكبيرة، أتَفخَر وتَتَبَخْتر عَلَيَّ بعد ارتكاب هذه الجرائم النّكراء وأعمالك الشّنيعة هذه التي يَندى لها جبين الدهر والإنسانيّة وتَمُنُّ عَلَيَّ؟! وها أنا ألقي باللائمة عليك لما أنزلت على بني إسرائيل من نيران سُخطك وجلبت عليهم من مصائب ومتاعب كثيرة. فيا ترى مَن الذي أعطى الضوء الأخضر

لفرعون أن يَقتُل أحدا أو يصفح عن آخر، أو يسرق من أموال أحد ويضعه في متناول يد شخص آخر؛ ألا تُصَنّف كلّ هذه الخُروقات ضمن الجرائم المحظورة أو المحدّدة التي تُرتكب بِحقّ البشر، أفلا تَترتّب على الجرائم التي ارتكبها فرعون العقوبة أو الجزاء القانوني، فهو الذي ظَلمَ واستكبر وطَغى. واستنادا لهذه الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿**وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها...**﴾. نتوصل إلى نُقطتَيْن أساسيّتَيْن، الأولى تبرز في الوقت الذي يزعم الفراعنة والطواغيت بأنهم متفضلين ومتكرمين على البشر وأنّ الناس مَدينون إليهم، فحينئذ يجب أن نُلجمَ أفواههم وحلوقهم حجرا، لأنّ كل ما يبدر منهم في الأقطار والأمصار من حركات وسكنات، علاوة على تَدخّلاتهم السافرة في شؤون العباد يُعَدّ من الجرائم، فهم ليسوا مُخَوّلِيْن من قِبَل الله سبحانه وتعالى ولا إذن لهم في ذلك، فالشعوب لم تمنحهم حقّ التّحكم في مصيرهم أو توجيهِهم ليتسنى لهم قيادة الناس، ولا تسمح لهم أبدا بتفويض المسؤوليات والمَهام، أمّا النقطة الثانية فتكشف النقاب عن هذه الحقيقة بأنّ موسى قام بتضحية الذات من أجل المَصلحة العامّة، فأصبح لسان قوم بني إسرائيل وداعمهم، فهو الذي قام بتحديد جذور المشكلة محاولا احتواءها للحيلولة دون تفاقهما بعد معرفة أسبابها الرئيسة. وهذا ما يَتوقّعه الشارع من أنبياء الله والرّسل، أن يبادروا إلى الإفصاح عن جذور المعضلات المستعصية على حد سَواء، إضافة إلى تبيان آلام وأوجاع كافّة شرائح المجتمع (المدرسي، ١٤١٩هـ، صص ٣١-٣٢) ونرى في آية كريمة أخرى بأنَّ أتباع وأعوان الطاغية فرعون يُصرّحون مفتخرين بامتثال ورضوخ بني إسرائيل لأوامرهم، وعندما قام موسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام بدعوة الناس لعبادة الخالق عزوجل أجابوا:

﴿**أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُما لَنَا عَابِدونَ**﴾ (مؤمنون، ٤٧).

ويمكننا أن نصنّف هذا التّصور السائد في بوتقة الإمكان، لا سيّما بعد ظهور الطواغيت بأشكال وأنماط وأصناف متعددة، حيث الطاغوت المتجبّر والمُستبد، أو العالِم الذي يستغل عِلمه مَكسبا من أجل جلب الفائدة وجَني الأرباح لنفسه،

ومن هذا المُنطلق تُصنّف عبودية العلماء والرّهبان بكل تجلياتها ومظاهرها ضمن الأمور التي تكبّل الحرية بقيود، فعبادة هؤلاء كمعبود إلهي أو التّوجه إلى عَالِمٍ ينَصِب نفسه بديلا للمُشرّع، يُحلّل ويُحرّم كيفما يشاء، ويَفرض السّيطرة والتّحكم في الآخرين، وتُصبح أوامره مطاعة وتُتّخَذُ تفسيراته الشرعية كأصول مترامية الأطراف عارية من الأخطاء والهفوات، الأمر الذي يُفضي إلى تفاقم الأزمة وتأزيم الأوضاع، حيث أنّ انتشار هذه الأجواء المسمومة تَحول دون تحقيق الحرية السياسية – الاجتماعية وهي مرفوضة جملة وتفصيلا، قال الله في محكم كتابه المجيد: ﴿**إِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دونِ اللهِ**﴾ (التّوبة، ٣١) وبعد ما تراءت إلى سمع عدي بن حاتم هذه الآية، قال: نحن لا نعبد العلماء والرهبان، فأجابه الرسول الأكرمﷺ:

أَلَيْسَ يُحَرّمون مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرّمونَهُ، ويَحلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ، قَالَ: فَقُلْتُ نَعَمْ، قَالَ: فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ.

ويَنقل المرحوم الطبرسيرحمه الله قول الإمامَيْن الهُمامَيْن الباقر والصادقعليهما السلام حيث قالا: قَسَماً بالله العلي العظيم إنّ هؤلاء القوم لم يصوموا ولم يُصلّوا من أجل إرضاء عُلمائهم وعُبّادهم ونَاسِكيهم، لكنّهم كانوا يُحللون ما حرّم الله ويُحرّمون ما أحلّه الله، وكانت اليهود والنّصارى تتّبعهم وتَعبدهم، وفُرِضَت عليهم كل الظروف القاسية دون أن يُدركوا أو يَعوا حقيقة هذا الوضع الكارثي الذي يقبعون فيه (الطبرسي، ١٤٠٦هـ، ج٥، ص ٣٧) وفي رواية نُقِلت عنهرحمه الله أنّه قال: إنّ الناس لا يُصلّون ولا يصومون امتثالا لأوامر علماءهم إنما يتبعونهم في تحريم وتحليل الأوامر (البرقي، ١٣٧١، ص ٢٤٥). وجاء في رواية أخرى نقلا عن المعصوم قول الإمام الباقرعليه السلام بأنه أكد ضمنيا إلى هذا المعنى مشيرا إلى هؤلاء الناس الذّين كانوا يَنصاعون لتوجيهات رُهبانهم في معصية الله (العياشي، ١٣٨٠، ص ٤٥). ويمكننا القول بأنّ الرضوخ والتبعية الخاطئة للأشخاص عديمي الأهلية غير اللائقين، سيكون مصيره التكبّل بالسلاسل والأغلال والسقوط في وَحل العبودية، فتصبح

حرية الأشخاص على الصَعيدَيْن الاجتماعي والسياسي في خطر كبير، لا سيما بعد محاولة الجبابرة وأصحاب البطش من إعادة الهيبة المزعومة الكاذبة لإنفسهم اعتمادا على القوة القسرية والقبضة الحديدية التي يوظفونها كآليّة لاستخدام الضغط واستعراض الوحشية المعهودة وبَثّ أجواء الرّعب في المجتمع، ومِن سُخريّة القَدَر ونَكَد الأيام أن نرى رضوخ السّذج وركون ضعفاء الإرادة والرأي لهؤلاء الطواغيت، فهؤلاء هم الذين استباحوا نفوسهم ووَأَدُوْا عِزّتها ودَنَوْا بأطبائهم وفتحوا باب الانبطاح بسهولة ليكونوا عبيدا للمتجبّرين مُتَنَحّيْنَ عن حريتهم وحقوقهم بعد أن ارتضوا الذّل والمهانة لأنفسهم.

خلاصة البحث

إنّ مناقشة علاقة الحريّة والعبودية السياسية هي مِن الهواجس التي خالجت شعور الباحث في هذا البحث العلمي، وتأسيا بمنطق فهم القرآن الكريم وأدبه الراقي ونظرا إلى المباني الأساسية للتوحيد والخلق المتساوي والمتكافئ المبتني على حرية البشر، لا يحقّ لأي أحد أن يستعبد الآخرين، فعبادة الله هي بداية المسار للوصول إلى الحرية والتحرر السياسي. ونظرا للقيمة السامية التي تميّزت بها الحرية، يمكننا أن نجزم أو نصدر حكما مطلقا بأنّ عَهدَ العبودية قد ولّى وستختفي وتغيب كل مظاهره ووجوهِه الفردية والسياسية والاجتماعية.

إنّ القرآن الكريم يخطط في الوهلة الأولى لنشر بذور فكرة التحرر من الأهواء والرغبات النفسانية التي تقتحم الأدمغة والضمائر الإنسانية وبعد انفلات الإنسان المُحَطّم جسديا والمُنهَك من عبودية البشر والمقَيّد بالنزوات والشهوات، يأتي دور تحرير الإنسان من القوى الاستبدادية الجاثمة على صدور الشعوب حتى تتأتّى له حياة رغيدة ترتكز على العدالة والمساواة في مجتمع حُرّ ومستقِر ومتماسك، ليرسو مركبه على شاطئ الاستقرار والسعادة ويبلغ كماله الإنساني المنشود، وتنتشر روائح التغيير في الخطوة الثالثة بعد تمهيد الظروف المؤديّة إلى

التّحرر من العقبات الداخلية والخارجية والعوامل المُقيِّدة للحرية حتى يَتمّ الإعلان عن تدشين الحكومة الإسلامية والتّغني بإنجازاتها، بعد إتاحة الفرصة المواتية لبناء مجتمع مثالي يتمسك بالقِيَم ويطمح إلى السّمو والشموخ والسؤدد ليرفع راية العدالة والمساواة والحرية لابناء البشر الذين سيحتفلون بمجيئها ويتذوقون حلاوة رحيقها.

ومن أجل فهم حقيقة العبودية وكنهِها، يأتي استيعاب متعلقها في الدرجة الأولى من الأهمية، فإذا ما بات الإنسان عبدا ذليلا منبطحا للنفس الإنسانية، أو رِقّاً مسلوب الإرادة لإنسان آخر، أو عبدا مملوكا للطبيعة ومظاهرها، فإنه قيّد وقلّص حريته إلى أبعد الحدود، لكنه بعد أن يضطلع بالتبعية لأوامر الله وطاعته، سيخطو خطوة كبيرة لينتهي به المطاف إلى الحرية السياسية. ويجري هذا التحقيق إذا اقتضت الظروف تَصنيف الحرية على أنها أولى المطالب الإنسانية التي بدأت مع الإنسان وستنتهي معه لا محالة، فالحرية تعني القدرة على التصرف بملء الإرادة والاختيار وقد تلوح في الأفق بعد اجتذاذ العبودية ومظاهرها واندثار آثارها.

إنّ رسالة الديانات التوحيدية وفي مقدمتها الدين الإسلامي الحنيف ارتكزت على تبيين بعض المفاهيم للناس، في مقدمتها العدالة، والحرية، والمساواة، والحق، والقِيَم، والمُثُل العليا، حتى يصبح الناس داعمين للحقيقة والحرية وخصوما للباطل والاستبداد. وكانت كلمة الله العليا والرسائل السماوية المقدسة تدعو الناس إلى الانفلات من أغلال النفس وسلاسل الدنيا من خلال التّمسك بالأسس الفكرية الهادفة وآفاق المعرفة المتجددة، ليتسنّى لجميع الأصناف، والقوميات، والأقليات وطبقات المجتمع فرصة الاستفادة من القوانين العادلة والمعايير التشريعية المتكاملة، فالناسُ متساوين في هذا المبدأ يَستحقون المعاملة العادلة بعد أن تتحطم جميع أشكال احتكار السلطة وتتلاشى الأصنام الوهمية المُزوّرة ولا ريب أنّ استحقاق العبودية والعبادة يكون مختصا بالخالق المتعال الذي خلق جميع الناس أحرارا وأراد للإنسان أن يعيش ويتمتع في مجتمع حُرّ. وبناء على هذا المَنطق

سيكون جميع الناس متساوين في الحقوق والكرامة أمام الله ولا ميزة خاصة لأحد دون غيره، فَبدلَ أن يرضخ الناس لبعض المتغطرسين والقوانين المتحيّزة المتزمّتة أو ينوون الركون للأنظمة الدكتاتورية التعسفية، فاليتبعوا القوانين الإلهية وحكومة القانون لينسلخوا من وطأة العبودية.

و في مبحث التوحيد المنبعث من تعاليم القرآن الكريم والسّنة النبوية الشريفة نرى الإنسان كائنا كونيّا واعيا في وحدة وتواؤم مع الكَوْن وسُنَنه وسياقاته، فهو وليد الأرض، إنساني الماهية، ومِن الأهميّة بمكان أن يُتوّج بحق الاختيار وتعيين المصير بصفته صاحب إرادة وعزيمة وصلابة، وبالتّالي سيكون مسؤولا ومتجاوبا إزاء ما يقوم به من أعمال.

انطلاقا من هذا المبحث، وتأسيّا بالرؤية القرآنية، هناك رغبة مُلحّة ونظرة طموحة مستقبلية لنيل الحرية وارتياد آفاق العالم، لكنّها لا تتحقق على أرض الواقع إلّا بعد الخضوع لولاية الله وسيادته سبحانه وتعالى، إذ أنّ المحورَيْن الرّئيسيَيْن لا يتحققان أبدا إلّا إذا كانا متلازمين معا، وقد يتحرر الإنسان من عبودية الآخرين، في الوقت الذي يَمتثل ويفتح قلبه لسيادة الله التشريعية، وعلى النقيض من الفكرة التي تسود الموقف في أوروبا، فإنّ عبودية الخالق ومحورية الله تعالى لا تُفضي إلى النظام الشمولي الاستبدادي فحسب، بل على الأرجح ستُفضي إلى تحريك المياه الراكدة وانطلاق الخطوات الرئيسة للتخلي عن مركزية الذات، والاستبداد، وأخيرا ستنطلق الحرية السياسية لتبدأ مسيرتها التاريخية في كُل أقطار الأمة، بعد الإقرار بحكم الله والتسليم لأوامره عزوجل.

المجلد ١ * العدد ٢ * الرقم المسلسل للعدد ٢ * خريف و شتاء ٢٠٢١

المصادر

* القرآن الكريم

١. آقابخشي، علي. (١٤٢٤هـ). معجم المصطلحات السياسية. طهران: معهد العلوم وتكنولوجيا المعلومات في إيران(إيران دوك).

٢. البحرانى، سيدهاشم. (١٤١٦ه). البرهان فى تفسير القرآن. طهران: دار البعثة للطباعة والنشر.

٣. البرقي، أحمد بن محمد بن خالد. (١٣٧١ه). المحاسن. قم: دار الكتب الإسلامية.

٤. برلين، أشعيا. (١٣٧٩ش/١٤٢١ه). أربع مقالات عن الحرية (ترجمة: محمد علي موحد). طهران: منشورات خوارزمى للطباعة والنشر.

٥. تيندر، جلين. (١٣٧٤ش). الفكر السياسى (ترجمة: محمود صدري). شركة المنشورات العلمية والثقافية، ١٠٩و١٠٨.

٦. جوادي آملى، عبدالله. (١٣٧٨ش/ ١٤٢٠ه). ولاية الفقيه، ولاية الفقاهة والعدالة (ط ٢). قم: دار اسراء.

٧. جوادي آملى، عبدالله. (١٣٧٩ش/١٤٢١ه). فلسفة حقوق الإنسان. قم: دار إسراء للطباعة والنشر.

٨. دهخدا، علي‌أكبر. (١٣٨٥ش/١٤٢٧ه). معجم دهخدا. طهران: جامعة طهران.

٩. الراغب الأصفهانى. (١٣٧٣ه). المفردات في غريب القرآن. طهران: المكتبة المرتضوية.

١٠. سيدباقرى، سيدكاظم. (١٣٩٤ش/١٤٣٦ه). القوة السياسية من منظور القرآن الكريم. طهران: المعهد العالي للثقافة والفكر الإسلامي.

١١.الشريف الرضي، محمد بن حسين. (١٤٢٧ه). نهج البلاغة (صبحي صالح، ط ١). قم: دار الهجرة للطباعة والنشر.
١٢.الشوكانى، محمد بن على. (١٤١٤ه). فتح القدير (ط ١). دمشق، بيروت: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب.
١٣.الشيباني، محمد بن حسن. (١٤١٣ه). نهج البيان عن كشف معاني القرآن (تحقيق: حسين دركاهي، ط ١). طهران: مؤسسة دائرة المعارف الإسلامية للطباعة والنشر.
١٤.شيخ الصدوق. (١٤٠٣ه). الخصال (تصحيح وتعليق: علي اكبر غفاري). قم: جمعية مُدَّرِسي حوزة قم العلمية.
١٥.الصدر، سيد محمد باقر. (١٣٦١ش/١٤٠٢ه). الشكل التنظيمي لحزب الدعوة الإسلامية (ترجمة: حزب الدعوة الإسلامية). طهران: منشورات حزب الدعوة الإسلامية.
١٦.الصدر، سيد محمد باقر. (١٣٦٢ش/١٤٠٣ه). أئمة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية (ترجمة: علي إسلامي). طهران: دار روزبه للطباعة والنشر.
١٧.الطباطبائي، سيد محمد حسين. (١٣٨١ش/١٤٢٣ه). الميزان في تفسير القرآن. قم: منشورات إسماعيليان للطباعة والنشر.
١٨.الطباطبائي، موتمني. (١٣٧٠ش/١٤١١ه). منوتشهر الحريات العامة وحقوق الإنسان. طهران: منشورات جامعة طهران للطباعة والنشر.
١٩.الطبرسى، فضل بن حسن. (١٤٠٦ه). مجمع البيان في تفسير القرآن. بيروت: دار المعرفة.
٢٠.العياشي، محمد بن مسعود. (١٣٨٠ش/ ١٤٢٢ه). تفسير العياشي. طهران: مطبعة العلمية.

٢١.فروم، اريك. (١٣٥٦ش/ ١٣٩٧ه). الهروب من الحرية (ط ٤،ترجمة: عزت الله فولادوند). طهران: الشركة المساهمة لطباعة الكتب الصغيرة (حجم جَيْبي).

٢٢.القمى، على بن ابراهيم. (١٣٦٧ش/١٤٠٨ه). التفسير القمّي (تحقيق: سيد طيب موسوى الجزائري). قم: دارالكتاب للطباعة والنشر.

٢٣.الكاشاني، ملا فتح الله. (١٣٣٦ش/١٣٧٦ه). تفسير منهج الصادقين في الزام المخالفين. طهران: مكتبة محمد حسن العلمي.

٢٤.المُدرسي، سيد محمد تقى. (١٤١٩ه). من هدى القرآن (ط ١). طهران: دار مُحبّي الحسين للطباعة والنشر.

٢٥.المطهري، مرتضى. (١٣٧٦ش/١٤١٨ه). في رحاب نهج البلاغه. قم: دار صدرا للطباعة والنشر.

٢٦.المطهري، مرتضى. (١٣٨٧ش/ ١٤٢٩ه). حول الثورة الإسلامية (ط ١٢). طهران: دار صدرا للطباعة والنشر.

٢٧.مونتسكيو. (١٣٧٩ش/١٤٢١ه). روح القوانين (ترجمة: على أكبر مهتدى). طهران: دار أميركبير للطباعة والنشر.

٢٨.ميرأحمدي، منصور. (١٣٨١ش/١٤٢٣ه). الحرية في الفلسفة السياسية الإسلامية (ط١). قم: بستان الكتاب.

29.Emerson, Ralph Waldo. (2007). Self-Reliance; Nikolas Kompridis, "Struggling Over the Meaning of Recognition: A Matter of Identity, Justice or Freedom?" in European *Journal of Political Theory*, vol. 6 no. 3.

30.MacIntyre, Alasdair. (2001). "The Virtues of Acknowledged Dependence", Rational Dependent Animals: Why Humans Need the Virtues: United States, Chicago, Open Court.

31.Mill, John Stuart. (1999). *On Liberty*, London: New York: Bartleby,.

32. Sandel, Michael. (2010). *Justice: What's the Right Thing to Do*?, New York: Farrar, Straus and Giroux.

33. Sen, Amartya. (2000). *Development as Freedom* ,Anchor Books.

34. Young, Iris Marion. (1990). *Five Faces of Oppression*. Justice and the Politics of Difference" (Princeton University press,.